الدرس الحادي والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له :

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أُخبِروا بها كأنهم تقالُّوها فقالوا : أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر فقال أحدهم : أمَّا أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : أنا أصوم النهار ولا أُفطِر ، وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبداً ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأُفطِر وأُصلي وأُرقد وأتزوج النساء ؛ فمن رَغِب عن سنتي فليس مني)) .

****

قال المؤلف رحمه الله تعالى في «**باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرُّق والاختلاف والتحذير من ذلك**» : ولهما : أي وللبخاري ومسلم ، ثم ساق رحمه الله تعالى حديث أنس رضي الله عنه في قصة النفر الذين جاءوا إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام للسؤال عن عبادته وحاله ؛ وهذا فيه أن جزءً كبيرا من عبادة الإنسان وتقربه إلى الله تبارك وتعالى تكون في البيت ، قد جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: ((صلاة الرجل في بيته أفضل إلا المكتوبة)) ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((مثل البيت الذي يُذكر فيه الله والبيت الذي لا يذكر فيه الله مثل الحي والميت)) ؛ فجزء كبير من عبادة الإنسان تكون في بيته ، فجاء هؤلاء النفر إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام للسؤال عن عبادته ومعرفة حاله عليه الصلاة والسلام من حيث العبادة وأنواعه القربات التي تكون منه صلى الله عليه وسلم .

يقول أنس رضي الله عنه : ((**جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم**)) ؛ هنا نلمس فائدة عظيمة من تعدد أزواج النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن هذا التعدد منه عليه الصلاة والسلام في الأزواج كان سببًا عظيما ومباركا في نشر علمٍ عظيم وميراث مبارك عنه عليه الصلاة والسلام حُفظ في بيته من أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وهذا من الحِكم التي ذكرها أهل العلم في سبب تعدد

أزواجه صلوات الله وسلامه عليه ، هذا له حِكم من جملة هذه الحِكم: أن أزواجه عليه الصلاة والسلام من خلالهن يُعرف هديه عليه الصلاة والسلام في بيته في التعامل مع أزواجه وحاله في البيت صلوات الله وسلامه عليه ، فكل ذلك لا يُعرف إلا من طريق أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وأيضا ما يتعلق بما يكون بين الرجل وزوجه كل ذلكم لا يمكن أن يُعرف إلا من خلال أزواجه صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا حُفظ ميراثٌ مبارك وخير عظيم وفقهٌ كبير عن طريق أزواج النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم**)) أي كيف كانت عبادته .

((**فلما أُخبِروا بها كأنهم تقالُّوها**)) أي رأوا أنها قليلة .

((**فقالوا : أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر**)) وكأنهم يفهمون أن كون النبي عليه الصلاة والسلام غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر داعٍ للتقليل من العبادة وعدم الإكثار منها ، وقد جاء في كلامه عليه الصلاة والسلام الآتي ما يردُّ هذا الفهم حيث قال : ((إني أتقاكم لله وأخشاكم لله)) ، فهو عليه الصلاة والسلام مع أنه غفر الله تبارك وتعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان أعبد الناس لله وأكثرهم طاعة له ولزومًا لعبادته وتقربا إليه تبارك وتعالى وحفظًا لأوامره جل وعلا ، فكان أخشى الناس لله وأتقى الناس لله وأعظم الناس عبادة لله تبارك وتعالى ، فحقق مقام العبودية وكمَّل مقام الطاعة صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((**فكأنهم تقالوها وقالوا أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**)) كان هذا الفهم دافعًا لهم إلى الدخول في أعمالٍ وتشديدات على النفس لم تأت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، دخلوا في تشديدات على أنفسهم لم يأت بها سنةٌ عنه عليه الصلاة وإسلام بل تجاوزوا بها هديه وتعدوا ما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه .

((**فقال أحدهم: أمَّا أنا فأصلي الليل أبداً**)) أي أحيي الليل كله بالصلاة؛ يصلي ولا ينام يحيي الليل كله بالصلاة

((**وقال الآخر : أنا أصوم النهار ولا أُفطِر**)) أي يكون شأني في عبادة الصيام أنني لا أفطر «أصوم النهار ولا أفطر» ولم يقل «أبدًا» كما قال الأول وكما قال أيضا الآخر ((وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبداً)) ، فبالنسبة للزواج قال أحدهم لا أتزوج أبدا ، وبالنسبة لقيام الليل قال «أصلي الليل أبدا» ، وبالنسبة للصيام قال «أنا أصوم النهار ولا أفطر» ولم يقل أبدا؛ لأن في أيام السنة ما لا يحل صيامه ؛ يوم العيد عيد الفطر وعيد الأضحى لا يحل صيامه ، ولهذا لم يقل «أبدا» بينما في الليل قال أحدهم «أصلي الليل أبدا» ، وبالنسبة للزواج قال أحدهم «لا أتزوج أبدا» ، وبالنسبة لهذا في أمر الصيام قال «أنا أصوم النهار ولا أفطر» .

وهذا الذي قالوه هو تشديد منهم على أنفسهم لم تأت به سنة والنبي عليه الصلاة والسلام جاء عنه في الحديث الصحيح أنه قال : ((إن هذا الدين يُسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا)) ، ولننتبه لهذه الوصية العظيمة «سددوا»: أي اجتهدوا بأن تصيبوا السداد ، والسداد هو موافقة السنة ، موافقة ما كان عليه الصلاة والسلام وإصابة هديه ، سددوا فإن لم تبلغوا هذه الرتبة رتبة السداد التي هي إصابة السنة فقاربوا ؛ جاهدوا أنفسكم على مقاربة السنة ، أما أن يقول القائل "أعمال النبي صلى الله عليه وسلم قليلة ونريد عملا لأنفسنا أكثر من عمله" فهذا تجاوز لهديه عليه الصلاة والسلام ، قال «سدِّدوا» أي اجتهدوا في إصابة ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه ، فإن لم يتمكن الإنسان من السداد فعليه بالمقاربة ؛ يجاهد نفسه على أن يكون قريبا من هدي النبي عليه الصلاة والسلام ويترقى شيئا فشيئا في الكمال والرفعة والاتباع لهديه عليه الصلاة والسلام . قال: «وأبشروا» وهذه بشارة لأهل السداد ولأهل المقاربة كلهم لهم حظهم من هذه البشارة ، إلا أن أهل السداد حظهم منها أعلى ومكانتهم فيها أرفع . قال: ((سددوا وقاربوا وأبشروا)) أما أن يشاد الدين العبد فهذا ينال بسبب ذلك الخسران ، وكم من إنسان شدَّد على نفسه في الدين وتجاوز هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حتى ثقلت عليه العبادات فتخلى عنها وتحول إلى حال سيئة بالتفريط في العبادة والإضاعة لها . وهنا يقع الغلط من بعض الناس في هذا الباب يشدد على نفسه ، قال: ((ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)) .

الشاهد أن هؤلاء النفر الثلاثة وقعوا في الخطأ من جهة أنهم تقالوا عبادة النبي عليه الصلاة والسلام وقالوا: إنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإذًا لابد لنا بالنسبة لنا أن تكون عبادتنا أكثر ، فألزم كل واحد منهم بإلزام فيه تشديد على النفس .

قال : ((**فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا**)) وهذه أيضا فيها فائدة عظيمة ؛ النقل عن الأشخاص أحيانا لا يكون صحيحًا ، وأحيانا يكون فيه شيء من الزيادة والتقوُّل ، وأحيانا يكون فيه شيء من الغلط ، وأحيانا يكون وشاية ونحو ذلك ؛ فبدأ النبي عليه الصلاة والسلام بسؤالهم ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟)) ؛ فهذا فيه فائدة فيما يتعلق بمناصحة الآخرين لابد من التحقق والتأكد من وجود الأمر فيه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟)) .

فلما عرف عليه الصلاة والسلام أنه قولهم وأن هذا الكلام صدر منهم قال : ((**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله**)) أي أنا أكثركم لله خشية وأعظمكم له تبارك وتعالى تقوى ، وقدَّم عليه الصلاة والسلام بهذه المقدمة تمهيدًا بين يدي بيان خطئهم . ولنلاحظ أن الخطأ الذي عندهم بُني على ظن منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشأن غفران الذنوب أن تكون العبادة أقل ، وكثير الذنوب يحتاج إلى أن تكون عبادته أكثر ؛ فقدم بهذه المقدمة ((إني لأتقاكم لله وأخشاكم لله)) ؛ أنا أعظمكم تقوى لله وأعظمكم خشية لله تبارك وتعالى ، وهذه التقوى والخشية له جل وعلا لا تجعل الإنسان يفرط بل تزيد من إقباله ، كما قال في حديث آخر

عليه الصلاة والسلام ((أفلا أكون عبدًا شكورا)) ، تقول عائشة رضي الله عنها «كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!!» قال: ((أفلا أكون عبدا شكورا)).
فقال عليه الصلاة والسلام ((**أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم لله ، لكني أصوم وأُفطِر وأُصلي وأُرقد وأتزوج النساء**)) خلاف التشديد الذي كان من هؤلاء على أنفسهم .

قال عليه الصلاة والسلام ((**لكني أصوم وأفطر**)) يعني أصوم أياما وأفطر أياما ، وأحدهم كان طلب صيام الدهر بالتشديد على نفسه ، لكن من فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته تنال ثواب صيام الدهر دون أن تشدِّد على نفسك ، السنة كلها خير وبركة ، تنال ثواب صيام الدهر دون أن تشدِّد على نفسك ، قال عليه الصلاة والسلام ((من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال فكأنما صام الدهر كله)) ، وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: ((صيام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر)) ، فالذي يصوم شهر رمضان ويصوم ثلاثة أيام من كل شهر فكأنما صام الدهر كله فينال ثواب صيام الدهر دون أن يشدد على نفسه ، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على عبده المؤمن . أيضا فيما يتعلق بقيام الليل من يحافظ على هديه عليه الصلاة والسلام ويحافظ على الفرائض الواجبات في بيوت الله يُكتب له أجر القيام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((من صلى العشاء مع جماعة فكأنما أحيا نصف الليل ، ومن صلى الفجر مع جماعة فكأنما أحيا الليل كله)) فالذي يصلي الفجر مع الجماعة ويصلي العشاء مع الجماعة وينام ويصلي يأخذ حظًا من قيام الليل كُتب له قيام ليلة ، وفي رمضان قال عليه الصلاة والسلام : ((من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة)) فالسنة خير وبركة عندما يحافظ الإنسان على السنة وعلى هدي النبي عليه الصلاة والسلام فإنه يكتب له الصيام يكتب له القيام وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده المؤمنين .

قال: ((**وأتزوج النساء**)) والزواج له حِكم ويترتب عليه مصالح وفوائد عظيمة جدا ؛ الزواج يكسر الشهوة ، والزواج أيضا يتحقق به السكن للإنسان والطمأنينة وراحة البال ، الزواج يكون به النسل ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)) رغب عليه الصلاة والسلام في ذلك ، ثم إذا اجتهد الإنسان مع أولاده تربية لهم وتأديبا وتنشئة لهم التنشئة الصالحة يموت ويبقى أيضا من عمله الصالح ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث وذكر منها عليه الصلاة والسلام ولد صالح يدعو له)) فلماذا يحرم الإنسان نفسه من هذا الخير ويقول أنا لا أتزوج!! يتزوج ويجتهد في حصول النسل ويدعو الله عز وجل أن يصلح له الولد والذرية ويجتهد في تربية الولد ، وإذا مات أيضا بقي هذا الولد عقب خيرٍ يدعون له ويتصدقون عنه ويستغفرون له ويصل إليه ثواب ذلك وهو في قبره مرتهن .

فإذًا هذه الأمور وقع فيها هؤلاء من باب الإحسان وإرادة الخير، وكم من إنسان يقع في الخطأ من حيث أراد الخير، ولهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه بلغه أن جماعة مجتمعين في المسجد وعليهم رجل قائم يقول

"سبحوا مئة" فيقولون سبحان الله سبحان الله مئة مرة بصوت واحد ، ثم يقول "هللوا مئة" فيهللون يقولون لا إله إلا الله بصوت واحد مئة مرة ،"كبروا مئة" فيكبرون ، فدخل عليهم رضي الله عنه وقال : «أما والله إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فُقتم أصحاب محمد علما» ، اختاروا واحدا من اثنتين: إما أنكم جئتم ببدعة فتحتم باب ضلالة ، أو فُقتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في العلم ، ماذا يختارون لأنفسهم ؟ هل يقولون على أنفسهم أنهم عندهم من العلم ما هو أفضل من علم الصحابة؟ فقالوا : "والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير" ،كثير من الناس يقع في بدع وأعمال مخالفة للسنة وأمور لا أصل لها وهو في قرارة نفسه ما أراد إلا الخير ، ما أراد الشر ، أحب الخير ورغب فيه فيقع في المخالفة ، ووقوعه في المخالفة يكون عندما لا يضبط نفسه بضابط السنة ، فقالوا : "والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير" ، فقال رضي الله عنه وأرضاه «وهل كل من أراد الخير أدركه!!» أي أنه لا يدرك الخير إلا من يتحراه ويجتهد في طلبه في ضوء سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام القائل صلى الله عليه وسلم ((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي)) ، فالذي يجاهد نفسه على لزوم السنة والتقيد بها والاكتفاء بما جاء عنه عليه الصلاة والسلام هو الذي يصيب الحق ويصيب الخير ، أما ان يفتح لنفسه باب الاجتهاد ويقول "هذا الذكر قليل الذي جاء في السنة ما يكفينا ، وهذه الصلاة التي في الليل قليلة ما تسعنا ، وهذا الصيام كذا" ويبدأ يفتح على نفسه أبواب من التشديدات والأعمال التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، ولا يشدد الإنسان على نفسه فيشدد الله تبارك وتعالى عليه ((يسروا ولا تعسروا، بشِّروا ولا تنفروا)) بهذا كان يوصي صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ختم بأصل عظيم وقاعدة جليلة في الباب يجب على كل مسلم أن يحفظها وأن يعيها قال : ((**فمن رَغِب عن سنتي فليس مني**)) ؛ من رغب عن السنة أي اختار لنفسه غيرها رغبةً عنها إما لِعدِّها قليلة أو غير كافية أو ليست وافية أو نحو ذلك ، ورغب في غيرها رغبةً عن السنة ؛ يقول ((فليس مني)) وهذا من نصوص الوعيد الدالة على عظم هذا الأمر وخطورته وأنه ذنب وإثم عظيم استحق صاحبه أن يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((ليس مني))؛ أي من كان راغبًا عن السنة فليس مني ، وهذا من أحاديث الوعيد والتهديد الدالة على أن هذا الأمر ذنب عظيم من رغب عن سنتي فليس مني .

ويجب أن نفهم يا أخوان أنه قد تكون الرغبة عن السنة بفعل عبادات لكنها ليست مشروعة أو زائدة عن الحد المشروع ، فيضني الإنسان نفسه ويُتعبها ويرهقها بعباداتٍ لكنه فيها ليس على سنة النبي صلى الله عليه وسلم فيؤزر ولا يؤجر ويأثم ولا يثاب ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)) أي مردود على صاحبه .

وهنا سؤال عندما قال عليه الصلاة والسلام ((فهو رد)) هل المعنى أي مردود عليه ويكون الأمر لا له ولا عليه ؟ يعني لا ينال ثوابا ولا ينال عقابا؟ هل هذا هو المراد؟ لا والله ، باب البدعة باب إثم وهي أخطر من المعصية وباب

شر على الإنسان ، ولهذا هنا قال عليه الصلاة والسلام ((من رغب عن سنتي فليس مني)) . ولهذا يجاهد الإنسان نفسه على العناية بالسنة وحفظها وضبطها والعمل بها والدعوة إليها ، ولما خطب عليه الصلاة والسلام الناس ووعظهم في مسجد الخيف في أيام التشريق بمنى قال كلمة عظيمة لعموم المسلمين الذين أمامه قال: ((نضَّر الله امرءً سمع مقالتي فحفظها فوعاها فأداها كما سمعها)) رغب في حفظ السنة وفهمها وضبطها وإبلاغها للأمة بعد أن يعتني العبد في نفسه تطبيقا لها ومحافظة عليها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)) رواه مسلم .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم قال عليه الصلاة والسلام : ((**بدأ الإسلام غريباً**)) أي بدأ في أفراد وآحاد من الناس ، والواحد منهم بتمسكه بدينه ومحافظته عليه يحس أنه في غربه ، مَن حوله ليسو منه وليس منهم فهو غريب ، مثل الرجل الذي يدخل مصرًا غير مصره وبلدًا غير بلده ويمشي في الطرقات ويلتفت هنا وهناك ينظر إلى هذا وذاك لا يعرفهم ولا يعرفونه ، بخلاف ما إذا كان في وسط أهله وعشيرته وجماعته وقرابته يمشي في الطريق وأغلب من يراه يعرفهم ويعرفونه ، فإذا ذهب إلى بلد آخر يحسس بالغربة لا يعرِف ولا يُعرف . والإسلام بدأ غريبا الناس لا يعرفونه بل جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجبهم)) لأن الجاهلية والعياذ بالله طبَّقت الأرض كلها ، قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام طبقت الأرض كلها وخيمت عليها بجميع أطرافها لا يذهب الإنسان أي مكان في الأرض وفي أرجاء المعمورة إلا وقد عشعشت فيه الجاهلية وخيم فيه الضلال في الأرض كلها ((إلا بقايا من أهل الكتاب)) إلا قلة ونزر قليل وعدد يسير جدا بقايا من أهل الكتاب ، أما الأرض فقد خيمت عليها الجاهلية بكل أطرافها قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ، وبدأ الإسلام ينشأ ويشِع نوره ويظهر ضياؤه في جاهلية جهلاء وضلال مخيم ، فكان مَن يُسلم ويعتنق هذا الدين ويدخل فيه يعيش حياة غربة ، فيمشي بين الناس غريبًا ليسو منهم وليسو منه ، ليس على طريقتهم وليسو على طريقته ، فبدأ الإسلام غريبا .

قال: ((**وسيعود غريباً كما بدأ**)) سبحان الله!! الذي يتأمل في نشأة الإسلام وبدايته كيف بدأ غريبا لا يعرفه إلا القلة من الناس قال: ((وسيعود غريبا كما بدأ)) بمعنى أن الضلال يعود إلى كثير من الناس ، الانحراف ، أباطيل الجاهلية خصالهم أعمالهم ، أما لإسلام الصافي النقي السالم من أوضار الجاهلية وضلال أهل الأهواء وأباطيل أهل الباطل فإنه سيعود غريبا ، الذي سيعود غريبا كما بدأ الإسلام الصافي النقي ، أما الإسلام المدَّعى أو الإسلام

المشوب بالأضاليل والأباطيل والأهواء واتباع الخرافات والتزيُّد في دين الله تبارك وتعالى يوجَد ، لكن الإسلام الصافي النقي الذي هو هديه عليه الصلاة والسلام وسنته صلى الله عليه وسلم يعود غريبا .

قال: ((**فطوبى للغرباء**)) وهذا فيه حثٌّ عظيم وترغيب وتحريض منه عليه الصلاة والسلام على حفظ السنة والمحافظة عليها والاقتداء بهديه عليه الصلاة والسلام ، ولاسيما إذا أعرض الناس عن السنة ورغبوا عنها وانشغلوا بالأهواء والأضاليل والأباطيل .

قال ((**فطوبى للغرباء**)) ؛ قيل «طوبى»: الثواب العظيم والوعد الجزيل والأجر الكثير ، وقيل «طوبى» هي الجنة ، وقيل «طوبى» وهذا ثبت فيه حديث عنه عليه الصلاة والسلام شجرة في الجنة يمشي الراكب في ظلها مئة عام . أسأل الله عز وجل أن يكرمنا وإياكم بهذا الأجر العظيم والفضل العميم . فقيل في معناها هذه الأقوال ، والله جل وعلا يقول: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [الرعد:٢٩] .

فالشاهد النبي عليه الصلاة والسلام وعَد من حافظ على الإسلام واجتهد في التمسك به والمحافظة عليه وعده بهذا الوعد العظيم ؛ قال: ((طوبى للغرباء)) ، وقد سُئل عليه الصلاة والسلام في رواية ثابتة لهذا الحديث من هم ؟ قال ((الذين يُصلحون ما أفسد الناس)) وفي لفظ ((الذين يَصلُحون إذا فسد الناس)) فإذا حصل في الناس فساد ، والفساد يدخل على الناس من جهة التخلي عن السنة والرغبة عنها والوقوع في البدع والأضاليل ، فمن كان في مثل هذه الحال حريصا على السنة محافظا عليها متمسكا بها داعيا إليها ناصرا عنها فطوبى له كما أخبر عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جئتُ به)) رواه البغوي في شرح السنة وصححه النووي .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جئت به**)) ؛ وهذا فيه أن الإيمان لا يتحقق للعبد ولا يتم إلا إذا ألزم نفسه بالتزام السنة والتقيد بما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يرغب عن السنة بل يرغب فيها ويحرص عليها ويجاهد نفسه على التمسك بها ، ولا يكون في قلبه والعياذ بالله كراهية لها أو استيحاشًا منها أو بغضًا لشيء من هديه عليه الصلاة والسلام ، بل يكون هواه أي ما تهواه نفسه وتميل إليه وترغب في تحصيله تبعًا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومتى يبلغ الإنسان هذه الرتبة العلية والدرجة المنيفة ؟

والجواب أيها الإخوة على ذلك : أن هذه الرتبة لا تُبلغ إلا إذا حصل من الإنسان قناعة تامة بأن هدي النبي صلى الله عليه وسلم خير الهدي ، وأنه عليه الصلاة والسلام أولى بالإنسان من نفسه ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦] ، وأنه أحرص على نفسك منك ، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الأمر قناعة تامة واطمأن قلبه بذلك وراضت نفسه على ذلك فإن هوى القلب وميوله سيكون بإذن الله تبارك وتعالى تبعًا لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولابد في ذلك كله من عون الله وهدايته وتوفيقه وشرحه صدر عبده سبحانه وتعالى لذلك ، فالهداية والتوفيق بيده سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ليأتينَّ على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان فيهم من أتى أمَّه علانية لكان في أمَّتي من يصنع ذلك ، وإنَّ بني إسرائيل افترقت على ثنتين وسبعين ملَّة ، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين ملَّة كلُّهم في النار إلا ملَّة واحدة)) قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ((ما أنا عليه وأصحابي)) رواه الترمذي .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((**ليأتينَّ على أمتي كما أتى على بني إسرائيل**)) ؛ قوله «ليأتينَّ على أمتي كما أتى على بني إسرائيل» يفسره قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ، في رواية ((شبرًا شبرا ذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ وهذا منه عليه الصلاة والسلام إخبارٌ أراد به التحذير والنصح للأمة ؛ أن يحذروا من ذلك وأن يحذروا من اتباع سنن اليهود والنصارى وأعداء الدين ، فأخبر أن هذا سيوجد في الأمة وأنَّ كل أمر يفعله اليهود والنصارى وأعداء الدين سيوجد في المنتسبين للإسلام من يفعله ومن يتشبه بهم فيه .

قال: ((**ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل**)) في الحديث الآخر قال: ((حذو القذة بالقذة)) ؛ إذا جئت بريش السهم وقارنت بينها تجدها متساوية متماثلة ، أي أنهم يفعلون مثلهم تماما في كل صغير وكبير وكل دقيق وجليل ، بل تصاب القلوب في بعض الأزمنة والعياذ بالله بسبب الفتنة وكون القلوب أشربت بالهوى يصاب الناس في بعض الأوقات أنهم يتتبعون بكل دقة كل جديد عند اليهود والنصارى ، يتتبعونه بكل دقة وبكل لهف ويسألون عنه ويراقبونه ، ثم إذا وجده فرح به غاية الفرح وأنه من أوائل من جاء باتباع اليهود واتباع النصارى ومن أوائل من حاز المشابهة لهم والمطابقة لأفعالهم وأقوالهم . وهذه مصيبة عظيمة في حال كثير من

الناس؛ يتشبه بأعداء الدين في كل شيء ، وهذا لا يكون إلا بسبب مرض القلب ورقة الدين ، وإلا كيف يرضى المسلم لنفسه بالدنيَّة؟ كيف يتَّبع أعداء دين الله عز وجل؟ كيف يتبع الخاسرين الأخسرين أعمالا كيف يرضى لنفسه بذلك؟ وتجد أن بعض الشباب أيضا في مجتمع النساء ومحيط النساء مراقبة لأعمالهم وحركاتهم ؛ المشي اللباس قصة الشعر إلى آخره يتابعونهم فيه متابعة دقيقة جدا وأولًا بأول يقتدون بهم !! هذه من المصائب .

قال: ((**حذو النعل بالنعل**)) أي أنهم يتابعونهم متابعة دقيقة خطوة بخطوة ، مثل لو أن رجلا يمشي بنعله في طريق وآخر يمشي خلفه يضع نعله خلف نعل الرجل يحاكيه في مشيته ويطأ موطئه ويتبعه ((حذو النعل بالنعل)) .

حتى قال عليه الصلاة والسلام: ((**حتى إن كان فيهم من أتى أمَّه علانية لكان في أمَّتي من يصنع ذلك**)) لو كان فيهم من أتى أمه علانيه يعني من اقترف الفاحشة والجريمة مع أمه علانية أمام الناس لكان في أمتي من يفعل ذلك، هذا كله قاله عليه الصلاة والسلام تحذيرا للأمة ونهيًا لهم عن اتباع اليهود والنصارى .

وسبحان الله !! عندما يُشرب القلب هوى اتباع هؤلاء يمرض وتتغير عنده المفاهيم ، أنا أذكر مثالا في هذا الباب يوضح لنا كيف أن الهوى هو الذي يغيِّر مفهوم صاحبه؛ كان في زمان فائت بعض الشباب غير المتدين إذا رأوا الشاب الذي يلبس ثوبًا إلى أنصاف ساقيه أو أقل من أنصاف ساقيه فوق الكعب سخروا منه واستهزأوا به ورأوا أن هذه هيئة منكرة وهيئة تجلب السخرية والضحك ، فيسخرون منه ويهزئون وإذا مر بهم يتغامزون ، فهذه حالهم معه ، وبعد وقتٍ أصبحت الموضة عند الغرب أن يُلبس البنطال إلى الركبة أو أعلى من الركبة قليلا ، ويقصقص أيضا بشكل مشوَّه ؛ فخرج هؤلاء الذين كانوا يضحكون ولبسوا البناطيل إلى الركبة وقطعوها من الأسفل ومشوا في الشوارع معجبين بأنفسهم ويرون أن هذه هو الرقي وهذا هو الحضارة وهذا الجمال وهذا هو الحسن !! أنت قبل قليل كنت تسخر من صاحب السنة في اتباعه للسنة لأنه جعل إزاره فوق الكعب وترى أن الأنسب أن يكون إلى الأرض ولا يُرفع ، ثم لما فعل الكفار هذا ذهبت تقلدهم وتحاكيهم وتغيَّرت المفاهيم عندك لا لشيء إلا اتباعا لهم!! فهذا والعياذ بالله يبين كيف أن الشاب يقع عندما يشرب قلبه بالهوى بأمور وعظائم وشنائع بسبب محاكاته لهؤلاء وحبه لتقليد هؤلاء .

وهؤلاء يمشون في فراغ .أعداء الدين يمشون في فراغ ؛ أذكر رأيت رجلا في إحدى الدول كان حلق نصف رأسه الأيمن بالموس والنصف الثاني الأيسر تركه طويلا كاملا وصبغه بالأخضر، أنا لما رأيته قلت "سبحان الله كيف استطاع هذا الرجل أن يمشي بين الناس ؟! كيف استطاعت قدماه أن تخطو مشيا بين الناس بهذا المنظر الشنيع!!" ثم نظرت إليه ثانية وإذا به معجب بنفسه يمشي بإعجاب وفخر ويرى أنه من أحسن ما يكون ، ولا تعجب لو رآه أحد الشباب حذو النعل بالنعل ، لو رآه أحدهم قال "هذه سابقة ، من يصل هذا الأمر ! هذا هو الآن قمة الحضارة وقمة الرقي" . فعقول والعياذ بالله مخسوفة . فهنا ينتبه المسلم قال ((حذو النعل بالنعل)) وهناك قال

((حذو القذة بالقذة)) في كل أمر حتى لو وجد فيهم من أتى أمه علانية لوجد في أمتي من يصنع ذلك نعوذ بالله العظيم .

قال ((**وإن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين ملَّة ، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين ملَّة**)) هنا أيضا قال ذلك صلوات الله وسلامه عليه ناصحا للأمة ، وهذا الحديث صحيح ثابت عنه ولا ينبغي أن نلتفت للمشغِّبين ممن لا دراية لهم بأحاديثه عليه الصلاة والسلام ولا معرفة لهم بها ولا خبرة ممن يشغبون ويهوِّنون من هذه الأحاديث ، مثل أحدهم يقول "هذا الحديث يحتاج إلى أن يعاد النظر فيه متنًا وسندًا" وهو ليس من أهل هذا الشأن ، أو يطعن في صحته وهو ليس من أهل الدراية بهذا الشأن ، وبعضهم والعياذ بالله يقلبه بناء على رواية منكرة بإجماع أهل العلم "كلهم في الجنة إلا واحدة" والعياذ بالله يقلبه ؛ فمثل هؤلاء لا يُلتفت إلى كلامهم ولا يعبأ به ويُعرض عنه . والنبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ناصحًا للأمة فلماذا يأتي هؤلاء ويغيرون من هذه النصيحة؟ أين الغيرة على الأمة والنصح لها؟! النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لنا ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)) قال ذلك ناصحًا لنا ، فلِم يأتي أقوام ويحاولون التقليل من هذا الحديث والطعن فيه والتقليل من شأنه ويزعمون أن هذا الحديث يفرِّق ويشق الصف ونحو ذلك من المعاني . النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ناصحا للأمة ، إذا قبِلت أول الحديث لماذا ترد آخره؟ أليس قال في أول الحديث ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا حذو النعل بالنعل)) أتقرُّ بذلك أو لا تقر؟ أتقر أنه سيوجد في الأمة من يكون هذا شأنه؟ سيقول نعم ، فما دمت تقر بهذا فلم تعجب من قوله في تمام الحديث ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)) !!.

ولهذا يجب أن يتقي الله عز وجل من يقلِّل من أمثال هذه الأحاديث المشتملة على نصيحةٍ بالغة عظيمة من النبي عليه الصلاة والسلام لأمته ، في الحديث الآخر قال : ((إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا)) ، ماذا يقول القائل في هذا الحديث؟ وماذا يقول في قوله ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا)) ؟. فالشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال ذلك نصحا ، ومن يقول أن هذا غير صحيح وأن الأمة لا تفترق مقالته هذه هي في الحقيقة فتحٌ لباب البدع والضلال على مصراعيه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك تحذيرا للأمة من البدع والضلال.

قال: ((**وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها في النار**)) وهذا وعيد قال ((كلها في النار إلا واحدة)) شأنه شأن نصوص الوعيد الأخرى ؛ فهذا أمرٌ توعد به النبي صلى الله عليه وسلم أهل الافتراق ، قال ((كلها في النار إلا واحدة)) .

((**قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**)) هذا نجاته محققة ، مثل ما قال عليه الصلاة والسلام ((من صمت نجا)) أي نجاته محققة ، ومن تكلم؟ هلك أو بحسب كلامه؟ فهنا قوله عليه الصلاة والسلام ((كلها في النار إلا واحدة قالوا من هم؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي))

فمن لم يكن على مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ووقع في بعض البدع لا يعني الحديث أن من كان كذلك أنه في النار قطعا ، قد يتوب توبة نصوحة ، قد يكون هناك مصائب مكفرة ، قد يكون هناك حسنات ماحية إلى آخره ، ومن غلط في فهم الحديث يأتي ويقول: أنتم تريدون أن تجعلوا كذا وأنتم ؛كل هذا مبني على سوء فهم للحديث وعلى غلط في فهم السنة . هذا الحديث خرج مخرج النصيحة للناس وتحذيرهم من الباطل وتحذيرهم من البدع ، خرج مخرج جمع الكلمة على السنة وعلى الحق وعلى الهدى وعلى اتباع ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، والتحذير من الأهواء التي تفرِّق الناس وتفرق صفهم وتوقع بينهم التدابر والتعادي ، فمن لم يفهم مراد النبي عليه الصلاة والسلام ولم يفهم مقصده ينجر إما إلى رد الحديث من الأصل، أو الخوض في تأويلات باطلة وتحريفات كاسدة ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

والخلاصة أن الواجب علينا أن نعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ناصحا لنا ؛ فلنجاهد أنفسنا من سبل التفرق والاختلاف ومن طرائق أهل البدع والأهواء وأن نُلزم أنفسنا بسنة نبينا عليه الصلاة والسلام وهديه القويم.

قوله في تمام الحديث ((**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**)) ؛ وهذا فيه أن الدين الصحيح هو ما كان في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال مالك بن أنس رحمة الله عليه «ما لم يكن دينا زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم دينا» ، الدين الصحيح هو الدين الذي كان موجودًا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، أيقول عاقل إن أمورًا من الدين وجوانب منه حُرم منها الصحابة وادُّخرت لأقوام جاء بعدهم !! هذا لا يقوله عاقل ، الدين هو الدين الذي كان موجودًا زمن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ولهذا عبد الله بن مسعود قال كلمته التي سمعناها قريبا قال : «أما والله إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فقتم أصحاب محمد علما» ، لأن هذه العبادة التي أنتم عليها لم تكن موجودة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ، ولهذا سيأتي أيضا عند المصنف عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «كل عبادة لا يتعبَّدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبَّدوها ، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا» .

قال رحمه الله تعالى :

ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أُجور من تَبِعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تَبِعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) .

****

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .